عالم جديد: خان كلّ ما بين المحيطات

الأمجد سلامة *

في عام 1206م بسط تيموجين سيطرته على كامل السهوب المغوليّة (منغوليا ومقاطعة منغوليا الداخليّة الصينيّة اليوم)، معلناً بداية مشروع كونيّ جديد وأسطورة أنجح غاز في التاريخ. أمّا المشروع فكان الإمبراطوريّة المغوليّة، التي امتدّت في أوجها في منتصف القرن الثالث عشر ميلاديّ من بحريْ اليابان والصين شرقاً إلى غرب الأناضول ونهر نيستر في غرب أوكرانيا غرباً، ومن بحر الصين الجنوبي جنوباً إلى مدينتي فلاديمير وسمولينسك شمال موسكو شمالاً. أمّا الغازي فلم يكن إلا تيموجين نفسه، الذي أصبح يُعرف بـ«جنكيز خان». ويُصنّف هذا المشروع بالكونيّ لأنّه، وبحسب جون جوزيف سوندرز في كتابه «تاريخ الغزوات المغوليّة»، انطلق جنكيز خان في بناء امبراطوريّته من قناعته أنّ «تنغري» ـ إله شعوب السهوب الآسيويّة ـ قد اختار المغول لحكم العالم أجمع.

الجحافل الوهميّة

ولا تزال الامبراطوريّة المغوليّة، إلى اليوم، أكبر إمبراطوريّة برّيّة متّصلة عرفها التاريخ. ويعيد المؤرّخون التوسّع الكبير والسريع لهذه الإمبراطوريّة لما أرساه جنكيز خان من قواعد عسكريّة في الجيش الذي أورثه لأبنائه وأحفاده. ولم يكن العدد أو فعّاليّة وحداثة السلاح، كما يتبنى معظم المؤرّخين، ما ميّز الجيش المغولي، ولكن التنظيم والالتزام الفائقين وسرعة التنقل الإعجازيّة هي التي ميّزت ذلك الجيش.

ويقول موريس رُسّابي، في بحثه «كل جياد الخان»، إنّ جنكيز خان أورث أولاده جيشاً لا يزيد عدده عن المئتي ألف مقاتل، وهذا العدد قليل جداً عند احتساب المساحات التي جرى احتلالها في الأعوام التاليّة في حملات متزامنة في شتّى الاتجاهات شرقاً وغرباً. ويقول مارتن ديزموند، في «الجيش المغولي»، إنّ المؤرّخين ضخّموا أعداد جيوش المغول لسببين، الأوّل لضرورات السرد، فكلّ غاز عظيم يجب أن يقود جيوشاً جرّارة. والثاني، بمفعول رجعيّ، لتبرير الشعوب المهزومة هزيمتها أمام المغول. ويضيف ديزموند أنّ العديد المقاتل الفعلي لجيوش جنكيز خان عند موته كان 129000 جنديّ يتوزّعون على جيوش الجناح الأيسر (الشرق) والجناح الأيمن (الغرب) والحرس الإمبراطوريّ (الوسط). ويضيف أنّه حتّى مع توسّع نطاق سيطرة الإمبراطوريّة في أيّام أوغدِيْ خان واستقطابها للمزيد من المقاتلين من البلدان المحتلّة، لم يتعدّ عدد المقاتلين الفعليين في جيوش المغول الـ400 ألف جنديّ. وهذا عدد صغير للسيطرة على إمبراطوريّة شاسعة امتدّت، في حينه، على مدى شمال الصين وكامل وسط آسيا وإيران وأجزاء يسيرة من أوروبا الشرقية. ويضيف أنّ الجيوش التي كان يرسلها جنكيز خان ومن ثمّ ابنه كانت صغيرة مقارنة بالجيوش التي واجهتها، لا بل لم تخض معركة إلا أمام جيوش ذات عديد أكبر في السنوات الأولى من التوسّع. إذاً إنّ صورة جيوش المغول الجرّارة التي تفوق بأعدادها أي قدرة على المواجهة، التي زرعتها كتب التاريخ في رؤوسنا، هي صورة خاطئة.

القوس والخيّالة: جديد قديم

في مقابل المحاججة بالأعداد الضخمة كعامل نجاح المغول في المعارك، تبرز حجّة السلاح وتركيبة الجيش المغوليْن. من نافل القول إنّ المغول اعتمدوا على الرماة الخيّالة في قتالهم، وتألّفت جيوشهم، بشكل كامل، من الخيّالة. وحجّة السلاح تنبع من غرابة وتطوّر وفعّاليّة القوس الذي استعمله الرماة المغول في حينه. فبحسب إريك هيلدينغر في مقاله البحثي «الاجتياح المغوليّ: معركة ليغْنتز»، كان القوس المغوليّ مقوّس للخلف مركّب مصنوع من الأوتار والقرون الحيوانيّة والخشب. ويشرح سوندرز أنّ قوة إطلاق السهم من هذا القوس تعادل 72 كلغ-قوة، بينما تختلف مدياته بحسب ثقل السهم مع اختلاف الهدف من الرمايات، حيث يزيد مدى القوس على 320 متراً. فرمايات الخيّالة الخفيفة، وهي الرمايات الدقيقة المباشرة كانت تُرمى عن بعد 150-175 متراً، بينما الرمايات «الباليستيّة» غير الدقيقة، التي كانت تهدف إلى تشتيت خيّالة ومشاة العدوّ قبل اقترابهم، كانت تُرمى عن بعد 400 متر.

وكانت الجيوش المغوليّة تتألّف من الخيّالة فقط، أُضيف إليها فرق هندسيّة فيما بعد مع استيعاب الطاقات الصينيّة والمسلمة في الجيوش. ويقول ديزموند إنّ الخيّالة كانت تنقسم إلى قسمين، الخفيفة وهم الرماة خفيفو التدريع، والثقيلة وهم الفرسان المجهّزون بالسيوف والفؤوس بالإضافة إلى الأقواس، وهؤلاء كانوا ذوي تدريع ثقيل (نسبة لمستوى التدريع في سهوب آسيا) ومهمّتهم الانقضاض على خيّالة ومشاة الخصوم بعد تشتيتهم جرّاء تعريضهم لوابل الأسهم. ويضيف أنّ هذه التركيبة ووابل الأسهم الذي كانت تصبّه كانا ساحقين لجيوش المسيحيّة والإسلام والصين.

لكن ديزموند لا يرى أنّ عاملي السلاح والتنظيم الجديديْن على الجيوش آنفة الذكر ـ بحسب التأريخ التقليدي لهذه المرحلة ـ هما اللذان ساهما في التوسّع السريع للإمبراطوريّة المغوليّة. فيشرح أنّ الرماة الخيّالة لم يكونوا جدداً على هذه الجيوش بالحقيقة، فالمسلمون كانوا قد خبروهم في نموذج الجنود الأتراك القادمين من السهوب الآسيويّة عبر محيط بحر الأرال والذين سرعان ما تحوّلوا إلى نموذج الجندي المثاليّ في العالم الإسلاميّ. بينما كانت الصين تعاني من غزوات شعوب السهوب الآسيويّة منذ آلاف السنين وهم قد خبروا الخيّالة الرماة بشكل واسع. أمّا أوروبا فكانت تعاني منهم منذ القرن الثالث الميلاديّ مع اكتساح الهون للقارّة متسلّحين بقدرة الرمي عن ظهر خيل متحرّك بسبب اختراع جديد، وهو «ركاب السرج». وكذلك الأمر بالنسبة لتركيبة الجيش المكوّنة من الخيالة فقط، فجنكيز خان لم يأت بجديد في هذا العامل، لا بل إنّ كلّ جيوش شعوب السهوب الآسيويّة كانت مؤلّفة من الخيّالة بالكامل. وأصعب معارك خاضها جنكيز خان كانت معارك توحيد منغوليا ومنغوليا الخارجيّة، أي ضدّ جيوش تتّبع نفس البنية العسكريّة والتكتيكات، ومع ذلك انتصر عليها. لذلك فإنّ ميزة جيش جنكيز خان الأساسيّة لم تكن في هذين العاملين فقط أيضاً.

الأساس: التنظيم والالتزام

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ أحد أهم عوامل النجاح المغوليّ كان التنظيم والالتزام. وفي ما خصّ التنظيم، فقد كانت كلّ جيوش شعوب سهوب آسيا تخضع للنظام العشري في التقسيم. ويوضّح «ديزموند» هذا النظام بإسهاب، فكلّ عشرة جنود كانو يشكّلون «أربان» التي كلّ عشرة منها تشكّل سرب خيّالة أو «جاغهون» (100 جندي) الذي بدوره تشكّل كل عشرة منه فوجا أو «مينغّان» (1000 جندي)، وكل عشرة أفواج

الاستحقاق السوري

عبد المعين زريق *

ما زالت ترد الأنباء والأخبار السورية التي تفيد بعودة بعض المعارضين السوريين إلى الداخل السوري وكنف الدولة السورية، وإدلائهم بتصريحات صحفية أو بيانات ينشرونها لتخليهم عن النهج المعارض (السائد) منذ سنوات في صفوف المعارضة، والذي اكتشف مؤخراً هؤلاء المعارضون أنه يؤدي الى تفتيت وتجزئة وتقسيم سوريا والى إضعاف بناها الداخلية ومؤسساتها الضامنة. وسادت الأوساط السورية نقاشات حادة حول الطرق المثلى في معاملة العائدين الجدد الى حضن الوطن، وهل يجب أن تفتتح لهم صالات الشرف كما افتتحت للاعب كرة القدم فراس الخطيب، أو أن تقام للقادم مؤتمرات صحفية كبرى كما أقيمت للشيخ نواف البشير ليعلنوا فيها تبرؤهم من النهج المدمر للمعارضات السورية الذي غطى عمليات تدمير سوريا عن طريق التحريض والادعاء أن «أنصاف الثورات كوراث» وأنه «لكي تصنع العجة يجب أن تكسر البيض».

منذ بدء هذه اللوثة المجنونة وحروب الفجار على سوريا كنا ضنينين بكل قطرة دم تسفك من دم السوريين، وكنا ضد كل حالات التحريض على القتل والتشفي والانتقام واستخدام بازارات الدم السوري «ولو بشطر كلمة». وحذرنا من أن الحرب ستحرق السوريين وستنتهك حرمهم في درس غباء مكرر ما زلنا نشاهده ينتقل من قطر عربي إلى آخر، وسيكون السوريون وقود هذه الحرب من دمائهم وأرزاقهم وأملاكهم ومستقبل أولادهم، عبر تفكير دموي انتقامي يصدر عن عقول كبيرة بشهادات عليا (!) لكنها مضطربة إجرامية أصابتها فيروسات الوحشية والحيوانية والذرائعية، وتتعجب في كل مرة: أهؤلاء كانوا يعيشون بيننا؟!، وهل سنستطيع أن نعيش معهم في المستقبل؟! ففي حين تقوم عقول راجحة وهمم وثابة وقلوب مخلصة لأناس سوريين حقيقيين شرفاء يضعون دماءهم على أكفهم باستنقاذ أرواح السوريين من مناطق النزاع الساخنة، وإعادتهم الى الجهاد الصحيح في الحياة والعمل في مناكبها، في مصالحات وطنية تعيد سوريا لألقها وجمالها، وتسترجع حيوية شعبها من سنوات الضلال السوداء، أصرت طبول وطنابر و«طنبرجية» على شكل عقول فارغة وقلوب آثمة وجوقات مستأجرة حاقدة غبية وأفواه واسعة كأوكار الحيات والثعابين بالضجيج والصراخ من بعيد (!) والفحيح، واجترار الأحقاد القديمة والغرائز الحيوانية، وحرضت بإعادة الدروس الثورية السابقة وأخذ الثارات النائمة، وتغذية روح الانتقام الثورية، وكأنهم لم يشبعوا ولم يتعظوا ولم يكتفوا من دماء السوريين وخراب بيوتهم وتشريدهم وانتهاك أعراضهم (!)، (وجلسوا يتذاكرون أيامهم في الجاهلية، ويتلون أشعارهم القديمة الحماسية، فركبوا خيولهم وأغاروا على أولاد أعمامهم بني تغلب، فسبوا ونهبوا وقتلوا وأعادوها كرة أخرى). إن ما رددناه طويلاً في مواجهة هؤلاء المعارضين من ضرورة الابتعاد عن نبش الأحقاد وعدم تحكيم الغرائز وعواطف الكره والانتقام، يبدو أننا بحاجة لإعادته مرة أخرى لكل السوريين تحت أكناف الدولة السورية، المنتشين بحالة الانتصار والخلاص والنجاة التي تبدو سوريا الآن على أبوابها. الحزن، الخوف، غياب الأمن، الإحباط، القنوط، اليأس، الغربة، النزوح، اللجوء، المذلة، مغادرة الأهل، القهر المتفاقم هي بعض المشاعر المتنقلة والمظالم التي انتشرت في سوريا واجتاحت كل حيوات السوريين خلال السنوات العجاف السابقة، بكل الفئات وكل الجبهات وكل المشارب وكل الأماكن، (قد) تبدو عقبات كأداء أمام مستقبل سوريا القادم، فهل سيفهم السوريون العظات من ذلك؟ تساؤل نقدمه لأصحاب المطامع والأحقاد وأصحاب غرائز القتل والانتقام ومحبي الإقصاء والاستئثار وجوقات الأوهام والأحلام وطروحات المضللين ومن كل الأطراف!

لمن يسأل عن الحل والاستحقاق السوري، فإن ثورة حقيقية مطلوبة في:

. الندم ثم الحب والتسامح والغفران وعدم اجترار الأحقاد، وتقيؤ الكراهية والتعصب والتمذهب والطائفية وكبت شياطين الانتقام. هذه استحقاقات السوريين المنجية من الانحلال والزوال في كل لحظة وفي كل يوم ولأبد الآبدين. قلنا وما زلنا نقول إن تحدي القادم من الأيام للدولة السورية هو انتزاع البيئات المقهورة المغتصبة في الأرياف السورية من سطوة المسلحين والمتطرفين (وهم أكثرية مطلقة ولا صحة لنظرية البيئات الحاضنة فيها)، وعدم تحويلهم لجحافل من النازحين واللاجئين والمهاجرين إلى دول التآمر المجاورة لاستخلاص مسلحين وإرهابيين جدد من بينهم، يغذونهم بالحقد ورغبات الانتقام صباح مساء.

. يجب بناء ثقة جديدة بين الدولة السورية وسكان أريافها بمزيد من المصالحات والتعامل بالحسنى والتقدير ضمن سقوف وطنية مرتفعة وحضن وطن يتسع لأبنائه، ويجب هنا أن يلعب المجتمع المدني دوراً هاماً في جسر هوة الثقة بين الدولة وسكان الأرياف الذين خضعوا لسلطة المسلحين وسطوتهم لسنوات طوال.

. يجب التركيز على طرق الدولة السورية الراسخة في التعامل وفق القوانين والأنظمة الحاكمة، وإن كنا أقرب إلى تحكيم حالات المسامحة والغفران وتحكيم مبادئ وقيم المصالحات الوطنية والوئام المدني، شأن معظم المجتمعات الخارجة من صراعات المصير وامتحانات معموديات الحديد والنار، والتجربة الجزائرية فيما تلى عشريتها السوداء تقدم الكثير.

إن تحرير البلدات والقرى في الريف السوري سيحتاج إلى عودة الأهالي. فمنظر حشودهم الكبيرة عند المعابر الحدودية لن يسر إلا أعداء سوريا، والذين يروجون الأكاذيب عنها، وعمليات تأمين الأهالي داخل بلداتهم من جديد لن يحدث إلا بثقة ومصالحات صادقة (...)، وإلا سيصب ذلك التعامل بالمجموع والتصنيف الكتلي المصمت (مثل أن القرية الفلانية «إخوانية» وأن البلدة العلانية معادية وأن أهل منطقة

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500، 01759597
■ ص. ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع شركة الأوائل 15ـ 01/ 666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل /AlakhbarNews @AlakhbarNews /alakhbarnews-paper